# أحمد محرم..

# بين التجديد والتقليد

«لايعرف الشاعر إلا شاعر» تصدق هذه العبارة كثيراً في واقعنا الأدبي، وأقول كثيراً، لأن من الإنصاف أن أقرّ أن غير الشعراء لهم أصالتهم النقدية، ورؤيتهم الصائبة، ولكن بعض الذين كتبوا عن محرم من مؤلفي الدراسات الأكاديمية، غرقوا في تفصيلات باعدت بين الشاعر وما يقال عن حقيقة فنه، فجاء كلامهم لايخدم الحقيقة الأدبية قدرما يطمسها، أما أنا فقد قرأت للشاعر الرقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفي بحثاً صغيراً عن محرم نشر في أربع صفحات من مجلة «المجلة، ديسمبر سنة ١٩٥٧» فكان على إيجازه كافياً للإفصاح عن مكانة الشاعر، ومغنيا عن عشرات كتبها بعض المنهجيين دون جدوى كبيرة، لذلك سأنقل من هذا البحث الموجز ما يغني في تحديد شاعرية محرم أدبياً، وسلوكه النفسي متنزّهاً عن الهنّات، مثالي الاتجاه.

**يقول الأستاذ حسن كامل الصيرفي:**

«كان **أحمد محرم** شاعراً في الطبقة الأولى من شعراء جيله، كان امتداداً لمدرسة البارودي التي أعادت للشعر العربي بعد تدهوره إشراقاً في الديباجة، وجزالة في اللفظ وقوة في الأداء، ونقاء في العبارة وتأثراً بالمتقدمين من أساتذة الشعر العربي في أزهى عصوره.

كان **أحمد محرم** من هؤلاء الطليعة، ولكن ترفعه عن السير في ركاب الحاكمين، والزلفى إلى أصحاب الجاه ألقى على اسمه ستاراً من الجحود فنسيه الناس وإن لم ينسه الشعراء الكبار أنفسهم، فقد عرفوا قدره بينهم، ومكانته في صفوفهم، وعرف له فضله فريق من الأدباء الذين يزنون الأمور بميزان الجودة لا الشهرة، وبمعيار التمحيص لا الدعاية، حتى ظهرت موازنات بين شعره وشعر **شوقي**، وفي الحق أن أنصار شاعرنا **محرم** كانوا على الحق حين أقاموا هذه الدعوى، كان بين **شوقي** و**محرم** علاقة قوية وتقارباً بيّنا. لقد امتاز شعر شوقي بموسيقيته العذبة الموهوبة وهي ميزة تجدها في شعر **محرم** كذلك، ولست مغالياً إذا قلت إنها لاتفارق لفظاً من ألفاظه، موسيقى آسرة ساحرة تشغلك عن المعنى الساذج أو الحكمة المترددة بما يتضمنه البيت من شعره، وبصر باللفظ بعيد الغور ينتقيه للموضع اللائق به دون تزيد شأن الصائغ الماهر، حتى ليصعب عليك أن ترفع لفظاً من شعره لتضع مكانه لفظاً آخر، دون أن يفقد الشعر بريقه، وهو من هذه الناحية كان متفوقاً على **حافظ إبراهيم** حتى في الشعر الوطني الذي برز فيه حافظ، ذلك بأن حافظاً كان في شعره الوطني يميل إلى شعبية اللفظ إذ روح الخطيب كانت غالبة فيه على روح الشاعر، يفضل تصفيق السامع على اهتزازة القارئ، وكان **محرم** على النقيض من ذلك.

وإذا كانت لـ **محرم** تلك الميزة على حافظ في الشعر الوطني فإن له فيه أيضاً ميزة أخرى، هي أن شعره الوطني يصدر عن عقيدة صادقة لا استجابة للذين يطالبون بالاشتراك في الحفلات، فظل شعره في هذه الناحية على قلته متجهاً إلى هدف واحد، وجارياً في حقل واحد، كان لسان الحزب الوطني لم يمل هنا أو هناك، ولم تكن له أطماع في أن يبلغ صوته حيث يتربع صاحب السلطان، وكان حافظ

بقلم الدكتور
محمد رجب البيومي

في هذه الناحية صاحب أطماع وطموح إلى بلوغ هذه الغاية.

وكان شعر **محرم** صورة واحدة أخذت انعكاسات فحول الشعراء القدامى عليها فطبعتها طبعة واحدة لاتتبدل، وبقيت سماته ظاهرة واضحة لاتتشكل، في حين كان شعر **شوقي** متعدد ألوانه بتعدد الشعراء الذين يتأثرهم في نظمه فلا تفصله عنهم أو تميزه منهم قليلاً إلا موسيقاه وبعض ألفاظ واصطلاحات التزمها في قصائده.

ثم قال الأستاذ **حسن كامل الصيرفي**: هذه مكانة **أحمد محرم** بين شعراء جيله، وبقي شاعر واحد منهم وهو **خليل مطران** الذي تزعم حركة التجديد في الشعر العربي وغلّب المعنى في شعره ونظر إلى خلق فكرة تتبلور عندها القصيدة، نرى شعر **محرم** بعيداً عن التأثر بهذه النهضة، لأنه يرى أن الأدب الحديث «زيادة فنية تعطي صوراً معنوية جديدة فهو يقف دون هذه الزيادة، ولكن من يدقق في شعره قليلاً، وبخاصة مانظمه في أخريات عمره مثل قصيدة «وجودي» نجد فيها صوراً رمزية بارعة، ونجد فيها تعبيرات غريبة على أساليب القدامى مثل «ثمل الألفاظ» «مرح المعاني» هذا لباب ماقاله الشاعر الناقد، وجلّ ماقاله عن زملاء محرم مسلّم لايتهمه فيه، وماقام به من الموازنة المركزة بين شوقي ومحرم مسلّم به أيضاً بين من أدركوا حقيقة الشاعرين، وأكثر ما يتضح ذلك حين يتوافى الشاعران على موضوع واحد، بل إني لا أخشى أن أقول إن **محرم** قد سبق **شوقي** في بعض القصائد فقصيدة **شوقي** في الربيع مع اشتهارها وكثرة ماقيل عنها في مجال التنويه ومطلعها:

**آذار أقبل قم بنا يا صاح**
**حيّ الربيع حديقة الأرواح**(١)

هذه القصيدة الذائعة تفوقها قصيدة محرم في الربيع ومطلعها:(٢)

دنيــاك تـضـحـك عن وداد صـــاف
وتريك طيب العـــيش كـــيف يـوافي

ولست بصدد الموازنة بين القصيدتين، ولكني أقتبس من قـصـيـدة محرم مـايدل على موهـبـة رائعـة في الاستشـفاف الذوقي، والتصوير الفني، فهـو ـ مثلاً ـ يوضح تأثيـر الربيع حين يقـدم على الكون بمباهجـه فيخلق النفس الشاعرة خلقاً جديداً فيقول(٣)

ملك الخـــمــائل يـكتـسين نـضـارة
فـي جــــاهه، ويمـلـن بـالأعطـاف
بعـث الحنين إلى الأحـــبــــة وفــده
فـطوى الـديـار وطـاف كـل مـطـاف
دنيـــا مـــحت رسـم السّلوّ وجـــددت
لذوي الـصــبـابة كـل رسم عـــاف
عكف الجـريح عـلى هوى أحـشــائه
وقـــضى بقلب والـه وشـــغـــاف
لم يـتق من حق الحـــيـــاة مـــعطل
جنـح الزمــــان بنـا إلى الإنصـــاف

ويسـيـر مع عـواطفـه الواثبة، فـيلفت السـاهين إلى جـمـال الربيع، ويدعـوهم إلى أن يأخـذوا حظهم من جماله الأخاذ فيقول:

قل لـلـمـفـرّط في لـبـانة نفـســه
ضـيّـعـت أمـرك فـانطلق لتـلاف
ناج الحـدائق فــهي شـعــر ضــاحك
واسـتـنشـد الأزهـار فــهي قـــواف
صـور العـــواطف والحـيـــاة تموج في
دنـيـــــا من الألـوان والأوصــــاف
هذا يـناولـك الهــــمــوم يديـرها
حـــرّى وهـذا من همـــومك شـــاف

وإذا كانـت الدنيا لاتثـبت على صورة واحـدة، فليل ونهـار، وجدب وخصب، فـعلى المرء أن ينتـهز مَـقْدم الربيع لينهل من مـلاذه ما يعـوضه عن مـرارة العلقم في فـصل سـواه، إذ لاتثـبت الدنيـا على حـال، وهي حكمة وجدانيـة استشفها الشاعـر من خاطره قبل أن يستضيء بفكره فقال:

اسـتـــوف حـقـك عن مـــرارة عـلقم
يـســقـــيـكه السـاقي وطـيـب ســلاف
أو مــــــا رأيـت الأرض تذبـل تـارة
وتعـــود أخــرى غــضــــة الأطراف
نزلـت على الحكمين يعــتـــورانهـــا
من لـين ســــمـح، وآخـــر جـــاف
تثـري من الحسن البـديع فـإن مـضى
راحت بمـنزلـة العـــديم العـــافي
خـذ مـن عـــوارفــهـــا ومن آلائـهـــا
مـــا شـئـت، لاتك قـــانعـــاً بـكفـــاف
تعطـيك مـــســرفـــة تـعلم ذا الغـنى
شـــرف العطاء، وســـؤدد الإســـراف
كـــرمت على بـخل الزمــان ومـــا جنى
بالأمـس من ظـلم ومن إجـــحـــاف

ولم ينس الشاعر رسالته الخلقية أبداً، إذ يرى فيض الإحسان في مظاهر الطبيعة، فيطالب الثـري الشحيح أن يتعلم منها هذا البر العطوف، كـما يطالب من يتمتع بجمالها أن يشكر لها هذا البـهاء الخالب، كيلاً يسوءها هذا الجـحود، حين لاتجـد من يعـتـرف لها بالروعـة والجـمـال! لكأن الشـاعـر يقول لـلناس، كم من نابغ هُضم حقـه، وضاع فضله، فـانزوى عاثر الحظ، دامع العين، فـحـرام أن يضـيـع فـضل الربيع دون إشـادة وإعلان، أترى محـرماً كان يرنـو لنفسـه حين ضاع شعره بين عيون عمي، وآذان صم، فهتف بقوله(٣)

أسـبـغ ثناءك وأجـزها مـــا أسـبـغت
من كـل واف في الـصـنـائع ضــــاف
أبحــــرٍ أفــواف الـنعّـيم سـنيـــةً
وتعـــود عـــارية مـن الأفــــواف
أودى الجـحـود بمحـسـنين تنازعـــوا
من عــــبــــقــــري الفن كـل طراف
فـقـــدوا الرجـال المنصـفين فـشــأنهم
شـأن الضــعـــاف، ومـاهم بضـعـــاف

ويمضـي الشاعر المصور فـيدعو الطيور السواجع أن تهتف بما حباها الله من ألحان، فالأرض روض تزين والعروس أخذت أبهى مـجاليها في العـيون، ويعاوده

أساه على نفسه فيقول:

ياطير ما ضاق البيان وإنما
ضاق الزمان وضن بالإسعاف
غرد وإن هجْت الهموم لطائر
حمل الهموم كثيرة الأصناف
ورد النمير العذب غير مروَّع
مثلي، بورد ما يطاق زعاف
هان النفيس فضاع بين معاشر
وضعوا اللآلئ موضع الأصداف

لقد كان محرم شاعراً وحكيماً معاً، ولكن حكمته لم تأت جافة خشنة كما نراها عند بعض الناس، بل أشعلتها حرارة العاطفة، فوصلت إلى أنأى مواطن الشغاف من القلوب.

هذا بعض ما أضيفه إلى قول **الصيرفي** عن **شوقي** ومحرم، أما قوله في مجال الحديث عن تجديد خليل مطران إن شعر **محرم** بعيد عن التأثر بهذه النهضة لأنه يرى أن الأدب الحديث زيادة فنية تعطي صوراً معنوية جديدة فهو يقف دون هذه الزيادة، وهذا القول يحتاج إلى توضيح، لأن الشاعر **محرم** من حيث الديباجة البيانية، والالتزام بالمأثور من القافية والوزن لم يضف شيئاً يحسب له في مضمار التجديد، ولكنه من حيث الجدة في الأغراض الشعرية مثل الشعر الاجتماعي والشعر القصصي والشعر السياسي قد أضاف الجديد حقاً إلى التراث الشعري، دع عنك الشعر التاريخي الذي أبرز في مضماره ملحمته الخالدة «الإلياذة الإسلامية» وقد كان الأستاذ **الصيرفي** حذراً حين قال بعد ذلك «ولكن من يدقق في شعره قليلاً وبخاصة فيما نظمه من أخريات حياته مثل قصيدته النونية «وجودي» يجد فيها صوراً رمزية بارعة» وهذا حق لأن الشاعر منذ أوائل الثلاثينات كان في اتجاهه الشعري يواكب ركب المجددين، بل إنه أحس بضرورة التجديد فنظم قصيدة ممتازة تحت عنوان «**التجديد والتقليد**» بدأها بقوله(٤):

يا بني الشعر جددوا
عاجز من يقلد
ليس للفن غاية
فاعرفوا الحق واشهدوا

**▪▪ كان شعر أحمد محرم صورة واحدة.. أخذت انعكاسات فحول الشعراء القدامى عليها.. فطبعتها طبعة واحدة، لاتتبدل.**

املأوا الأرض نضرة
وانظروا كيف تُسعِد
صورٌ طال عهدها
كل يوم تُردد
ومعانٍ كأنها
في الأساطير تجلد
عذبت فهي تشتكي
وأولو الأمر حُشّد
أهي جانٍ مكبل
أم أسيرٌ مصفد
يخلق اليوم بردها
ثم يأتي بها الغد
ثم لاشيء غيرها
فهي همٌّ مجدد

فالدعوة إلى التجديد قد فهمها **محرم** حق الفهم، ولكن بمفهومه الخاص، الذي حصرها في الأغراض والمعاني لا في الأزياء والأشكال، ولعل أسطع الأغراض الشعرية التي اتجه إليها محرم في مضمار التجديد هما غرضا الطبيعة والغزل، إذ بدأ الشاعر فيهما مقلداً، لايكاد ينفح بالجديد، ثم انبثق تيار الجدة عنده في الثلاثينات فأتى بالطريف المبتكر في هذين الغرضين، وقد أشرت إلى نمط مما قاله في استقبال الربيع، حيث لم يكتف بالوصف الظاهري للورد والطير والروض بل تغلغل إلى مكنونات النفس وكشف الستار عن أحاسيس مكظومة كان الحديث عن الربيع مجالاً للإفصاح عنها بأجلى بيان، مع المحافظة على الديباجة العربية الأصيلة التي هي عنوان مجده الأدبي! وإذا كان الربيع بألوانه المتجددة وثيابه المتعددة، ومنظره البهيج قد أتاح للشاعر هذه الصور الأخاذة حسياً ومعنوياً، فإن الصحراء بصمتها الموحش، ووجهها الجديد، وسكونها المطبق كانت مثار

إلهام دافق له، إذ أنشد قصيدته «قصر كليوباتره» بادئاً بوصف الصحراء فأتى من البدائع الشعرية ما يؤكد أصالته العريقة، وأذكر أن مجلة الفتح نشرت هذه القصيدة ممهدة لها بهذه النبذة «جال الشاعر لأول مرة جولة واسعة في الصحراء، مع فريق من صفوة إخوانه، وشاهد ما أبقت الأيام من قصر كليوباتره ففاضت نفسه بهذه الآية من آيات البيان، بعثت في الذوق حياة جديدة للامّية حكيم تنوخ(٥)
يقول محرم مبتدئاً بوصف الصحراء:(٦)

**هي الدنيا التي تسع الجمالا**
**فسر إن شئت أو ألق الرحالا**
**حللتُ بها فما صادفتُ جوا**
**خلا مما أحب، ولا مجالا**
**ترامت في جوانبها الأمالي**
**كسرب الطير وانطلقت عجالا**
**هي الدنيا التي وسعت خيالي**
**مررت بها فظنتني خيالا**
**أقمت ورفقتي فيها قليلا**
**فياليت المقام هناك طالا**

ثم أخذ يقارن بين الصحراء في العهد القديم، والصحراء اليوم فقال:(٧)

**ذئابَ القفر أين ذهبت إني**
**أرى أمر الحياة قد استحالا**
**خلت منك البداوة فاستراحت**
**نفوس ذقن بالأمس الوبالا**
**فيالك موطناً للأمن فيه**
**شرائع لانرى فيها اعتلالا**
**وياويل الحضارة من ذئاب**
**تفوق الأُسْد فتكاً واغتيالا**
**أثار المفسدون الشر فيها**
**وظنوا العيش مكراً واحتيالا**
**وقالوا ما الحياة سوى نضال**
**وما عرفوا الحياة ولا النضالا**

هكذا يلج الشاعر إلى إحساسه الداخلي مقارناً بما يرى من المنظر الخارجي! فيتحدث عن الحضارة التي ملئت اليوم بطشاً واغتيالا مقارنة ببداوة الأمس التي لم يكن الإنسان عامل الشر فيها، بل كانت الذئاب وحدها، وهي أهون شراً من إنسان اليوم! أما الروعة كل الروعة والإبداع كل الإبداع في الصورة التي وصف الشاعر بها صعوده إلى القصر بين المغاور والأحجار، وقد أشفق على نفسه من السقوط في المهاوي فأخذ يعتصم برفيقه، ويتحسس موضع قدمه، إذ أن أقل زلة طارئة ستهوي به إلى المكان السحيق، صورة جديدة لم أقرأها قبل ما قال محرم:(٨)

**نزلنا ننظر القصر المحلّى**
**لريب الدهر يُرهقه نكالا**
**وسرنا في جوانبه خشوعاً**
**نرى الأحجار حيرى والتلالا**
**فنصعد تارة ونكون أخرى**
**كمثل الجن منزلة وحالا**
**يقول دليلنا سيروا الهوينى**
**مخافة أن نراع وأن نهالا**
**وأمسك صاحبي أخشى عليه**
**إذا خطواته اضطربت فمالا**
**ويدركني بعونٍ من قواه**
**إذا ما ظنَّ بي ضعفاً وخالا**
**يلازمني فما أخشى انفرادا**
**وأصحبه، فلا يخشى انفصالا**
**كلانا كالدم الجاري امتزاجا**
**بصاحبه، وكالروح اتصالا**

وأفاض الشاعر في ذكريات تاريخية عن عهد القصر، وملكته كليوباتره، وما أبقت حجراتها من آثار صوامت تشكو برح الحنين لمجدها الغابر، فكان مما قال:(٩)

**كليوباترا انظري تجدي طلولا**
**تظل جثومها تشكو الملالا**
**مضت أيامها وتداولتها**
**عوادي الدهر أسراً واعتقالا**
**أقامت بعد عهدك إذ تولى**

مــقــــام الوالهـــات من الـثكالى
رحلـت ولو تطـاوعــهـــا قـــواها
أبت حـــجـــراتـهـــا إلا ارتحـــالا
كـــأني إذ رأيت القـــصـــر قـفـــرا
رأيت الجـند حـــولـك والرجـــالا
مــشى الـقـواد صــفـــاً إثـر صف
يـهـــــزون الأسـنة والـنـصـــــالا
ولا كــــــهًـــــان ترتـيـل تداعـت
عليـــه حـــمــائم الوادي انـتــحـــالا
وهاتـيك الـوصـــائف كـــالدراري
تـطـالع فـي أريكـتـك الـهـــــــلالا

فإذا تركت الصحراء وقصر كليوباتره إلى البحر فإننا نجد من إبداع الشاعر مالا يلحق به فريق ممن يرمونه بالتقليد، وقد قالوا كثيراً في البحر مما سموه بأدب الشاطئ وبالغوا في ذلك إلى درجة إصدار دواوين منفردة بالشاطئ وأيامه ولياليه، ولكن هل قال قائل منهم مثل ماقال **محرم** مخاطباً البحر:(١٠)

**الشـعــر شـعـرك من يقـول سـواكـا**
**قل فـــالمــالـك كلهــا نجــواكـــا**
**هـي نفــــثـــة ممـا تبـث وخطـرة**
**مما تـردد في نـشـــيـــد هـواكـــا**
**مـــا هذه الأصـبــاغ؟ أين وجــدتهـا**
**ياواحـــداً في الـفن ليس يُحـــاكى**
**ليــلاي نـافـرة فــهـل تجـد الذي**
**أنا واجــد فـي الحب من لـيــلاكـا**
**هل ثـورة الأمـــواج فـــيك لـواعج**
**تذكي فـؤادك أو تزيد حــشـــاكـا؟**
**أم أنت مـن ألم الصــبـــابة صــارخ**
**تشـكو الهـــوى، وتضج مـن بلواكـا**
**أم تلـك آمـــال يـقـــال لـهـــا اهـدئي**
**فـتـــثـور غـضـبى، مـــا تمل عـــراكـا**
**هي ثورة الـدنيـــا وحـــيـــرة أهلـهـــا**
**مـــثلتـــهـــا لـلناس في دنـيــاكـــا**
**مـــا أصـدق الـتـمـــثـيل لولا روعـــة**
**تبـــدو عليك ورقـــة تغـــشـــاكـــا**

■■ **في إبداع الشاعر كثيرٌ مالا يلحق به فريق ممن رموه بالتقليد.. فهل قال قائل منهم.. مثلما قال محرم، مخاطباً البحر؟!**

**تصـــفـــو فـيظهـــر مـــا تـكن وإنهـــا**
**لتـــرى حـــرامـــا أن تكون كـــذاكـــا**

والبيت الأخير وثبة فنية رائعة، إذ يقارن الشاعر بين البحر الذي يصفو فيظهر للناس مابداخله والدنيا التي لاتصفو أبداً، لأن شرها مخبوء مكنون.

وللشاعر نفثات أخرى في أدب الشاطئ أشير إليها دون أن أسرف في الاستشهاد!

هذا بعض ما أقوله عن خطرات **محرم** في معبد الطبيعة الفاتن؟ فماذا أقول عن جذواته الملتهبة في حميم الغرام! والطبيعة والغزل كما قلت هما أظهر مجالي التجديد لدى الشاعر الكبير.

وبدءاً أعلن أن الحب العفيف ليس مجال نقد ما، وقد ذكرت في كتاب «**مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن**» ما ينفي هذا الزعم فقلت(١١) «إن كبار علماء الإسلام في سالفهم الزاهر، قد وضعوا الكتب الوجدانية ذات التحليل الأدبي الرائع، والقصص العاطفي الشاجي، والاستشهاد الشعري الرقيق ومنهم الإمام ابن حزم في «طوق الحمامة» والإمام ابن الجوزي في «ذم الهوى» والإمام ابن القيم في «روضة المحبين» وأفضت في ذلك إفاضة تبطل مزاعم من يتنكرون لصادق العاطفة، وطاهر الوجدان، وكان من حظ محرم أن الهوى المشتعل صادفه في خريف حياته بعد أن ودّع عهد الشباب، إذا أوقعه المقدور في هوى مدرّسة أديبة تقرض الشعر وتعشق الأدب، وقد طرقت بابه تلميذة تتعلم على يده، ولكن الشاعر أحس نحوها بهوى جارف لم يقدر على كتمانه، وكان هوى طاهراً لم تعلق به ريبة ما، وقد حاول الفرار منه كثيراً، حين كان يعلم وقت مجيئها، فيتفق مع أصدقائه على القيام برحلة ما، تبعده عن موطن اللقاء، وقد كشف عن نفسه حين قال في مطلع قصيدته الشهيرة «رحلة عابسة»:(١٢)

**عــصف الهــوى بجـوانـح المشتـــاق**

وهفا الحنين بقلبه الخفّاق
ما يصنع القلب الطروب إذا الهوى
بلغ القرار وجال في الأعماق
ياصاحبي فيم المقام على الأذى
سر فالبلاد فسيحة الآفاق

ولكن الرحلة لم تنقذه من خواطره إذ الأمر كما قال الشاعر العذري من قبل:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تُمثل لي ليلى بكل سبيل

ولئن كان هذا الحب عذاباً لـ محرم، فقد كان نعيماً لأدبه، حيث تطور بشعره الغزلي من نمط التقليد الصارم الذي يتجلى في مثل قوله:(١٣)

أو كلما سكن الشوق فأقصرا
هاجته أسراب المها فتذكرا
مرت تجدّ لذي الصبابة شجوه
وترد من سرح الهوى مانفرا
يا من لمستلب القرار مفزع
مايستكن خياله إلا انبرى
ذكر الأحبة فاستبد به الأسى
ورأى المنازل باللّوى فاستعبرا

إلى نمط رائع من الشعر الغزلي البديع، الذي يمزج الغزل الحنون بوصف الطبيعة الجميلة في أبهى مظهر من مظاهرها الفاتنة، وكأن الشاعر لم يجد فرقاً واضحاً بين زهرة تخيلها باكية، إذ سقطت حبات الندى فوق كمّها، فكانت في مرأى الشاعر دمعاً يتحدر، وبين عين عاشق كابد اللوعة فانفجر الدمع من مقلته! لقد كان مشهد الزهرة الباكية معادلاً موضوعياً لمشهد مقلته الباكية، فآثر أن يسليها بنفثة شعرية رائعة، لأنها زميلته في الشقاء، وقرينته في البلوى، فقال متسائلاً:(١٤)

أهذي دموع الطل أم هاجك الهوى
فأنت لفقد الإلف تبكين من وجد؟
فديتك لولا الزهر ما اشتاق عاشق
وما ذاق ما يدمي الجنون من السهد
سمعتك إذ مر النسيم مسلماً
تقولين من أغراك بالهجر والصد؟
وأبصرت منك الدمع ينظمه الأسى
فسمطٌ على سمط، وعقد على عقد
عذرتك ما بُعد الأليف بهين
وإني رأيت الموت معنى من البعد
خذي من دموعي ما استطعت فإن بي
رميس الهوى يزداد وقداً على وقد
كلانا مُصابٌ، غير أني إذا الهوى
ألح على المحزون واسيته جهدي
سأجعل أنفاس النسيم رسالة
تزيدك ياليلاي وداً على ود
إذا ماسرى يهدي إليك تحيتي
فمن عبق الريحان أو نضرة الورد
أعندك ياليلاي من لاعج الهوى
ومن لوعة الشوق المبرح ما عندي
أتبكين مثلي؟ لا، دعيني فإنني
رضيت بأن ألقى صروف الهوى وحدي
بربك ماهذا الجمال الذي أرى
أليس له فيما ترى العين من حد
معانيه تستقصي المدى وفنونه
أوابد تستعصي على الشاعر الفرد
أحبك، فازدادي على الدهر بهجة
وزيدي بني الشعر مجداً على مجد

وبراعة التشخيص في هذه القصيدة تعلن عن نفسها، فقد خلع الشاعر أحاسيسه كلها على الزهرة النادية فالطل دموع، والنسيم معشوق، والوردة عاشقة، وما بين حواء وآدم مثل مابين النسيم والزهرة في منطق الشاعر، أما اللغة فرقيقة ترف صفاء، لأن رقة الموضوع قد نظمت الألفاظ في عقد لؤلؤي باهر، وجعلت المعاني ذات حنين يُبين عن نفسه بما يحمل من أوار، وماهكذا كان غزل الشاعر على كثرته من قبل!

وأجمل مايروقك من غزل هذا الكهل الضارع

المستكين، أنه يحس نفسه قويا كالأمس الدابر، ثم يدرك حقيقة ضعفه فيقع في حيرة من أمره، وقد أوهم نفسه حين تخيل أن الضعف ضعف الحبيبة لا ضعف الحبيب، وهي عزة متخيلة يحسها أرباب القصيد إذ يتوهمون أنهم فوق الناس، ومن حسن الحظ أن هذا التوهم لايدوم غير لحظات توحي للشاعر أن ينظم شيئاً يستعلي به، ثم يعاوده اليأس الجاهم، فيعرف أنه كان حالماً، هكذا كان **محرم** في مقطوعته التي ادعى فيها قوة لم نعهده بها من قبل، ثم رأى ضعفاً مماثلاً لدى صاحبته كان أقوى من قوته، فاستجاب له خاشعاً، وهذا ما أفهمه من قوله:(١٥)

قلت أطويه بما في قوتي
من أعاصير تهد الأقوياء.
فطواني في ثنايا ضعفه
فإذا بي أترامى كيف شاء
فتماسكت وعدت القهقرى
أنفض العجب وألقى الكبرياء
وجعلت الضعف عوني في الهوى
فأصبت الطب منه والدواء
لان من أحببت فازددنا هوى
وتمادى الحب فازددنا وفاء
سلك الدمع إلى آفاقه
سبلا كانت من الدمع خلاء
قوتي ضعف، وضعفي قوة
فاخشعي يانفس أو طيري هباء
يسقط الصخر، ويمضي صعدا
ساقط الترب فيحتل السماء
إنما السلطان في الدنيا لمن
يُعجز الأيام حزماً ودهاء

هذه القوة الموهومة التي تخيلها الشاعر لحظات، وباهى بها مختالاً، لم يستطع أن يعود إليها في قصيدة أخرى، لأن الواقع الجهم قد أوقفه على حقيقة أمره، فترقرق شعره دامعاً خاشعاً، وظهر الشاعر في وضعه الطبيعي حين جعل يواصل أناته الضارعة، فنظم قصائد مؤثرة، يطول بنا القول إذا أخذنا نتعقبها ببعض التحليل ولكنا نكتفي بمثال ضارع باك يتجلى في قوله:(١٦)

من همومي فيك ماجرّعني
وجع المرضى، وذل البائسين
رحت استشفي فما ألفيت لي
من دواء غير ترداد الأنين
آه لولا الحب ياقاتلتي
عشت في الأحياء عيش الناعمين
إن عندي من أحاديث الهوى
روعة الدنيا وشجو العالمين
بين عينيّ وما حولهما
صحف منشورة للقارئين
يعطف السطر على السطر كما
يعطف الباكي على الباكي الحزين
يا قتيل القيد، لاتخف الهوى
واحتسب نفسك بين الهالكين
هات عينيك وخضها لجة
غرقت فيها دموع العاشقين
هي كالكوثر في حرمته
مورد الرسل، وحوض المتقين
حرم العفة أو قدس الهوى
لم تدنسه ذنوب الخاطئين
ذابت الأنفس فيها وجرت
في عباب من هيام وحنين

ولعلي بعد هذه الخطرات النقدية أحفظ للشاعر حقه في التجديد الأدبي الملتزم حين يكون من معاني التجديد انقسام الخواطر، وتعدد الأغراض، دون مساس بالعمود الشعري القائم على ركيزة قوية من التراث التليد، ولا أكتم القارئ رأياً قد اعتقدته، وبسطت الحديث عنه في مقال ضاف قلت فيه مافحواه، إن كثيراً من الكاتبين يقرنون حافظا بشوقي عند الحديث عن شعراء النهضة الأدبية، وكان الأصوب أن يقرن محرم بشوقي، فهما متقاربان وإن لم يتساويا، أما حافظ فبعيد عنهما، ولكل شاعر طاقته الفنية، وحسبه أن عبّر عن خواطره في صدق وإخلاص.

■■■